عن المعركة الثقافية

نزيه أبو نضال

الحديث عن الثقافة راهناً ومستقبلاً لا يمكن ان ينفصل عن الحديث عن السياسة والحرب وانظمة الحكم والديمقراطية.. الخ.. فالثقافة ليست جزيرة يمارس عليها المثقفون ابداعاتهم ونتاجاتهم الفكرية، ولكنها جزء من المعركة الشاملة التي تخوضها كافة القوى والطبقات على كافة الأصعدة وفي جميع المجالات.

المثقف هو قبل كل شيء، كائن اجتماعي ووظيفة اجتماعية. وهو يلعب دوره أساساً انطلاقاً من هذا الموقع الاجتماعي، وكجزء من عملية الصراع الطبقي والوطني التي يعيشها شعبه.

وانطلاقاً من هذا الفهم فإن الثقافة ـ بأوجهها المختلفة ـ ليست سوى واحدة من أسلحة المثقف المتعددة التي سيتخدمها في معركته الشاملة.

ان رؤيتنا هذه للمسألة الثقافية يجنّبها ان تكون شيئاً ما (فوق) المجتمع، أو اعتبارها شيئاً ما على (جانب) الحركة الاجتماعية. ومن هنا بالضبط، أي من تحديد الموقع الاجتماعي للمثقف، يمكننا تقييم دور الثقافة في الفترة السابقة، ويمكننا الحديث عن دورها مستقبلاً.

المثقف الملتزم بقضايا أمته، والمنخرط في صفوف شعبه يدرك بوعيه وبحسّه التاريخي المؤشرات المبكرة والعامّة لحركة الصراع فيسارع على الفور بتوظيف كافة امكاناته النضالية والفكرية والابداعية باتجاه المعركة القائمة او المنتظرة.

حين أحكمت الدكتاتورية العسكرية قبضتها الفاشية على رقبة الشعب التشيلي صرخ بابلو نيرودا الذي غنى طويلاً لعيون الزا: الآن نشهر الكلمات المقاتلة.

وتحول شعر نيرودا الى سلاح بيد المقاتلين وعمال المناجم الذين يناضلون من أجل الحرية والديمقراطية.

في معركة بيروت المجيدة خاض المثقفون العرب على الجبهة الثقافية واحدة من أشرف معاركهم في التاريخ المعاصر كله. لقد اندفع مئات الكتاب والأدباء والشعراء والفنانين للعب دورهم كاملاً في اطار المعركة الشاملة التي تخوضها الجماهير دفاعاً عن بيروت ولتعزيز صمودها.

وأسهم هؤلاء المثقفون بدور بارز في خوض النضال الثقافي والاعلامي والتعبوي والسياسي بل والعسكري أيضاً.

انخرطت الثقافة في خضم الصراع ولم تعد (فوق) أو على (جنب)، وشكلت بالتالي النموذج لمستقبل النضال الغربي. لماذا تجرأ المثقف العربي في بيروت على مواجهة آلة الموت الصهيونية ولم يتجرأ على مواجهة آلة القمع والاستلاب العربية؟

هنا تنفتح المعركة الديمقراطية بأوسع ابوابها وتدعو الجميع لخوضها بدون هوادة أو تردد.

لماذا تقاتل بيروت منفردة في ظل صمت عربي مطبق؟ هنا تنفتح المعركة القومية ومعركة الوحدة العربية بأوسع ابوابها أيضاً وتدعو الجميع لخوضها.

كيف تصمد الجماهير المسلحة وتقاتل في بيروت بينما الجماهير العربية مكبلة بالخوف والانتظار؟

هنا تنفتح آفاق حرب الشعب العربية وتدعو الجميع لخوض غمارها دون تردد.

ان الانطلاق من دروس بيروت العظيمة في جميع هذه المجالات وغيرها، والاسهام الثقافي في بلورتها وتعضيمها هو الذي يعزز ثقة الجماهير العربية نفسها وبقدراتها على الحاق الهزيمة النهائية بالعدو مهما بلغت التكاليف وعظمت التضحيات.

ان ثمة نهجين يحكمان الواقع العربي الآن: النهج الأول: يرى ان ما حدث في لبنان مجرد هزيمة أمام عدو متفوق لا نستطيع مواجهته.. وعلينا بالتالي التسليم بشروطه صلحاً واعترافاً وانفتاحاً، كما دعت منظومة الدول العربية في فاس.

النهج الثاني: منطلق من تجربة الصمود والقتال العظيمين لجماهير بيروت، ويدعو للاستفادة منها وتعميمها كوسيلة اساسية لمجابهة العدو، وهنا بالضبط يتحدد دور ومهام المثقفين العرب وكافة القوى المؤمنة بتحرير الارض والانسان العربي من الاحتلال والقمع.

دمشق